كتاب اولادي — (تابع ما قبله)

مهلك سأقذف بك لزدت ذعراً على ذعر وخفت من الموت فمت من الخوف

اجل ان الشجاعة الحقيقية تتولد من ارادة الرجل صاحب السلطان على نفسه والعالم بمبلغ ما يتقاضاه الواجب من التضحية. والشجاعة كالارادة تهون بالمزاولة وتسهل بالممارسة حتى تصبح عادة بل ملكة كالملكات الغريزية يتخلق بها الانسان بغير تكلف او كبير عناء . والذي يباشر عملاً يقتضي خطره شجاعة حقيقية يمهد بذلك لنفسه فيما بعد سبيل الاستظهار بشجاعته على كل ما يعترضه من سائر العقبات والمخاطر . وهكذا شأن المنقذ الذي يقتحم الامواج المتلاطمة والرياح العاصفة مخاطراً بحياته لانجاد مركب على شفا الغرق فانه يعيد الكرة مستبسلاً ساكن الجأش ثابت الجنان كلما عرضت له مثل هذه الفرصة ومثل هذا الخطر . ومثله الجندي الذي يضطرب ويجزع في اول موقعة يباشرها ويقتحم على الرغم منه دوي الرصاص وقصف المدافع فانه يسير فيما بعد الى النار كالسائر الى لقاء الحبيب ويرى الموت كالحطاب يحصد بمنجله من حواليه دون ان يتولى نفسه الجزع او يتطرق الى جسمه الاضطراب

فاذا كانت ممارسة الشجاعة امراً في الامكان فمن الضروري اذن ان نزاول هذه الممارسة حتى نحذقها بحيث اذا تعودناها في الصغائر من الامور هونت علينا ما تقتضيه الكبائر من الجهد ولنكون شجعاناً ولنابي داعي الخطر

والالم حتى الموت اذا دعانا مناديه . والذي يمعن الفكرة يجد ان الواجب هو الذي يوحي الينا بالشجاعة ويبعثها في صدورنا ولذلك لا يخلق بنا ان نجعل العامل الذي يدفعنا الى التخلق بالشجاعة هو توقع الجزاء والتماس طيب الاحدوثة بين الناس ولكن ويا للاسف كم من الرجال الذين يطلبون الشهرة عن طريق البسالة فهم لذلك لا يقتحمون من الاعمال الا ما كان اتيانه جهراً يكسبهم فخراً ويحجمون عما يتم سراً ولا ينيلهم حمداً ولا شكراً . ولكن الله ادرى

وانه وان لم يصح نفي صفة الشجاعة عن هولاء الرجال فان شجاعتهم ليست من الطراز الاول ولا الثاني لان من يلتمس الاجر عن عمل صالح يأتيه ولا يجد في قضاء الواجب نفسه كفايته من العزاء والاجر فانما هو ينتقص قدر فضله وقيمة عمله ولقد قال روشفوكو عن حق : « تقوم الشجاعة الحقيقية بان يعمل الانسان في الخفاء ما هو قادر ان يعمله علانية . وعندي ان خير شجاعة هي ما اوحى بها الواجب وهي واحدة لا تتجزأ فالرجل الشجاع شجاع في كل الظروف وفي جميع الاشياء . والرجل الجبان جبان على الدوام وفي كل الحالات طريقه العار ورفيقه الاحتقار والهوان ملتحفه والخزي مكتنفه وقد ضربت عليه المسكنة فما لها عنه انفكاك وطوقته الخسة فما لحبلها انبتات وهو والكذوب اخوان بل صنوان في الحطة لا يفترقان وما الكذب في الحقيقة الا نوع من الجبن لان من احب ان يكون الصدق حليفه في اقواله وجب ان تكون الشجاعة اليفته في اعماله

وانهم ليرون الصانع الذي يشتغل في معمله والمزارع الذي يعطف على ارضه في حقله والعامل ايا كان الذي يدأب مجتهداً في عمله غير مضيع وقته

ولا باخل بقواه فيقولون عنه هذا شجاع . ونعم ان الشجاعة التي يبرهن عليها بعمله لهي الشجاعة بعينها وهي هي التي تنفخ من روحها في صدر الجندي وهو في ساحة الحرب وتدفعه الى اقتحام الخطر والاستخفاف بالموت وهي التي تقذف بالرجل الباسل الى المواقف الخطرة فيقدم على المصاعب غير هياب ويجتاز العقبات غير مبال بما دون ذلك من الاهوال وهي التي تهون ايضاً احتمال اعباء الحياة وما يقضي به الواجب وتوحي به مكارم الاخلاق بدون تردد ولا اعياء

والجبن هكذا واحد في جميع حالاته لا يتحول ولا يتبدل . فانما عن جبن يحجم الانسان عن العمل وعما يقتضيه من الجهد والعناء كما يحجم عند القتال عن جبن ويفر من وجه العدو ومن لقاء الخطر وما يلحقه من التعرض للموت

وانه لكذلك عن جبن يعرض الرجل الضعيف الهمة الوافر الاثرة الجبان في كل شؤونه عن تحمل اعباء الواجبات الثقيلة الوطأة الكثيرة الخطر ويفرق من القيام باود عيلته ويلوي عن كل ما تجلبه الحياة من صعوبة او تقتضيه من جهاد وبالجملة عما تحويه من معنى سام وشعور شريف

ولا ينزل الجبن بصاحبه الى ادنى دركات الخسة والحطة اذا استسلم اليه بل يجعله فوق ذلك فدماً احمق لان الجبان تفوته المعرفة بمبلغ راحته وسلامته والا ليبذل القليل من الجهد والشجاعة في سبيلهما حرصاً عليهما من الضياع وصيانة لهما من مخالب الاطماع

فالجندي الذي يتولاه الخوف ويولي الادبار من ساحة القتال مطلقاً سائقيه

للريح لهو اكثر تعرضاً للموت من الجندي الذي يقبل على العدو ويبقى محارباً في صفه حيث اقامه الواجب وحيث يكون الخطر ابعد توقعاً

اما الرجل الذي يجبن عن العمل فيصعر له خده ويوليه شطر الاعراض فانه يسير الى الفقر والضيق بقدميه ويقبل على ايام مر موردها كدر مصدرها في حين كانت له اعذب سبيل يستقي منه احلى سلسبيل لواجب ان يعمل عن طيب خاطر فيضمن سعادته في الحاضر والاتي من ايامه

وعلى ذلك فان الذي يحجم عن القيام بالواجب في مثل هذه الظروف ويعتصم بالجبن لا يلبث ان يناله القصاص العادل والعقاب العاجل

ولا يكفي دليلاً على الشجاعة ان لا يرتد الانسان الى الورآء عند دنو الموت وان يتلقاه بلا ذعر ولا رعدة بل الموت كثيراً ما يرى مقبلاً ولا مفر من لقائه فالذي تقتضيه الشجاعة حين ذاك ان يستعد المرء لاستقباله هادئ النفس ثبت الجنان منبسط المحيا ولنا في موت سقراط اجل عبرة واجمل امثولة توارثناها عن العصور السوالف والازمنة الخالية وما يقتصر مغزى هذه العبرة على كون الفيلسوف ابى ان يركن الى الفرار لينجو من الحكم الجائر الذي صدر عليه ظلماً وعدواناً وانما في كونه اقام ينتظر كاس الردى وقد تجلى عظيماً تحتاطه هالة من نور المجد الخالد وتهيأ للاستشهاد في سبيل الواجب كما يستشهد البطل الباسل الذي لا يعبأ بالفناء لاعتقاده انه عاش عيشة شريفة يموت بعدها موتة مجيدة

ولقد روى لنا افلاطون في مجموعة محادثاته ما كان من امر استاذه في دقائقه الاخيرة قال حضر عامل من قبل محكمة اثينا يحمل الى سقراط الكاس التي تحوي السم فتناولها الفيلسوف بيد الهدوء والسكينة دون ان يضطرب

او يمتقع لونه او تتغير ملامحه ثم قال انه ليجوزلي ان ارفع رجاء الى الالهة لابتهل اليهم ان يهونوا عليَّ اجتياز هذه الحياة الى الاخرى وهو جل ما ارجوه منهم فعسى ان يحققوا سؤلي ولا يخيبوا مأمولي . وبينما كان يفوه بهذه الكلمات ادنى الكاس من شفتيه واحتساها دون تقزز واشمئزاز ثم نظر فرأى محبيه ومريديه الملتفين حوله يبكون ويتفجعون فلم ينله من ذلك تأثر او انفعال بل راح يحضهم على التزام جادة السلام والسكينة والتدرع بالشجاعة فاحر بموتة هذا الصالح ان تكون خير عبرة وذكرى

ولقد يضيق بنا المقال لو اردنا ان نسرد جميع ما علق بالذاكرة مما طالعناه من هذا القبيل في اسفار التاريخ ومما تناقلته الالسن وبلغ مسمعنا ومما شهدناه بانفسنا وكان موضوع اعجابنا وانما اجتزىء عن كل ذلك بذكر الحادثة الآتية

اني رأيت منذ نحو عشرين سنة مصرع رجلين وافاهما الاجل المحتوم بعد نزع طالت مدته وثقلت وطأته على تنبه في الفكر والاحساس واستشعار بالردى فضيا على البقية الباقية من الآمال وزادا في تبريح الآلام حتى لا احتمال وكان الاثنان مصابين بداء السرطان الذي دبَّ في وجهيهما فابتلاهما باقبح تشويه وراح يقودهما على مهل الى حفرة القبر على مرأى من الاهل والمحبين وقد اقر الطب بالاعياء فلا ممانعة وعجز الدواء عن الشفاء فلا من شفاعة نافعة وكأن عذاب الجسم لم يكن كافياً فكان يزيد تألم نفسيهما ما يريانه حولهما من مظاهر الاشفاق عليهما مع شيء من النفرة منهما . وكان احدهما مديراً لمدرسة المعلمين العليا والثاني من طائفة العمال قديماً ثم صار نائباً عن احد احياء باريس في مجلس النواب وهما وان اختلفا في المركز فقد اتفقا في الفضل والاستحقاق

اذ دلا فيما تحملاه من طول عذاب النزع على كونهما من كبار النفوس ومن الشجعان الابطال وكيف لا يكونان كذلك وهما وان زايلت محياهما البهجة والنضارة وحل محلهما التشويه والقبح فما فارقهما الابتسام ولا غادرهما السكون ولا خانهما الصبر بل بقيا على حالهما من ثبات الجأش وقوة التجلد الى ان غابا كما تغيب الشمس في ظلمة الرمس واعتقت من عقالها النفس

ولعمري ان موت هذين البطلين لحري ان يكون شبيهاً بموت سقراط والعهد غير بعيد من الزمن الذي كتبت فيه هذه السطور بما كان من امر هؤلاء الرجال الذين علقوا في براثن المنون فافترستهم على مهل كما تفترس الضواري بعد تعذيب اخف منه القضاء أو ليس توقع البلاء اشد من البلاء ؟

ذلك ان الغواصة « فارفاده » غرقت في ميناء بيزرت وهي مشتملة على عشرة من الرجال مع رئيسهم الشاب وكان هواء الغرفة التي تحويهم اقل من ان يكفي طويلاً لتنفسهم فضلا عن اطالة اجالهم لا سيما وقد انضم الى ذلك سبب اخر وهو ان الحاجز الذي كان يفصلهم عن القسم المملوء بالماء من الغواصة لم يكن محكم السد مما جعل الماء يرتشح رويداً رويداً ويملأ المكان الضيق الذي كانوا يقيمون فيه

وكانت الغواصة قد نشبت في الوحل على عمق عشرة امتار فدأبوا من الخارج على تعويمها على سطح الماء وانقاذ من فيها من اسرى البحر على ما كان من ضعف الرجاء في بلوغ هذه الغاية لتعذر العدد والوسائل الضرورية في ميناء بيزرت التي يحتاج اليها مثل هذا العمل الشاق واني اضرب صفحاً عما تخلل هذه المحاولة للانقاذ من التفاصيل والادوار مكتفياً بالقول ان

الغواصة تم انتشالها بعد الشديد من الجهد والعناء سليمة من التلف والعطب الا قليلاً ولكن نصيب الرجال الذي في جوفها لم يكن هكذا ويا للاسف

وما كان ليغيب عن هولاء الرجال ما كان يبذل من الهمة في سبيل انقاذهم بل كانوا يدلون الغطاسين الذين يعملون من الخارج عن وجودهم بقرع جدران السفينة التي كانت سجنهم ثم تحولت ضريحاً لهم . وفي أثناء ذلك كان الماء يتزايد شيئاً فشيئاً فينقص من رحب المكان ويدني الموت منهم فيجسم لهم خياله ويقطع من الرجاء حباله

ولقد ظلوا حتى الرمق الاخير يدافعون الاجل متذرعين بكل الوسائل الممكنة للاحتفاظ بقليل من الهواء الى ان دقت الساعة فانقضى الجهاد وقد كانت سجلت عليهم آية الانكسار فاسلموا ارواحهم للردي وارتاحوا له والموت احدى الراحتين ودخلوا في عالم الابدية

وبعد ايام عومت السفينة فوجدت جثث اولئك الرجال والسكينة تملو وجوههم والاجسام مسجاة ما بها من أثر للانتفاض او للانقباض كانما كانوا نياماً في اتم السلام والراحة بعدما قاموا بالواجب عليهم الى النهاية وضحوا الحياة في سبيله كما يضحيها اشجع الابطال

وان من عرف ما يزين اخلاق البحارة من نادر الشجاعة وجميل البساطة لا يخامره ادنى شك بان رجال الغواصة فارفادة قد لقوا الموت بلا جزع واسلموا ارواحهم بلا شكية ولا ممانعة وفخرهم في مثل هذا القضاء لا يقل عمن يقضي في ساحة الوغى شهيد خدمة الاوطان فلمثلهم يحق ان يكتب على الضريح الذي يضم رفاتهم ويحوي بقاياهم : « ماتوا شهداء الواجب في خدمة الوطن »

وقد اجمعت شتى الفلسفات والمذاهب التي لم تركز مبادئها على قواعد الافساد والتضليل على تمجيد الشجاعة لدى الموت ولقد تطرف اتباع الفيلسوف اليوناني زينون الى الايغال في مبدأهم فاباحوا الانتحار وهو مالا يتسنى لنا موافقتهم عليه لان الانتحار يكون على الاغلب مظهراً من الجبن والعجز وعلى الاعم تقصيراً في اداء الواجب . فالانتحار يكون جبناً اذا اتخذه الانسان ملجأ ليتملص مما يبدو له ثقيلاً من اعباء الحياة او لينجو من تبعة يخيفه حملها او ينتهي من آلام ادبية او مادية قد ناء باثقالها وما هو في الحقيقة الا هارب من اداء الواجب آبق من معترك الحياة لان الانسان مدين قبل كل شيء بحياته نحو نفسه ونحو ذويه ونحو بلاده

ولا يبدو الانتحار جائزاً الا في حالة واحدة وذلك حين يمكنه التخلص من عار وان يكن من الناس من يعتبره مذموماً حتى في مثل هذه الحالة بدعوى ان الانسان يجب عليه اذ ذاك ان يعيش ليكفر عن الخطأ الذي قذف به الى اسفل الهاوية . وهو قول يسوغ من الجهة الادبية ولكن هل يصح لدى الحقيقة ان نلوم انساناً لم تعد تطيب له الحياة فرغب عنها بعد ما اضاع كرامته ومنزلته بين الناس وهو عاطل من الشرف ؟ وقد قال الشاعر اللاتيني جوفينال انه لمن اكبر المصائب ان تفضل الحياة على الشرف وان لا تذهب فدىً لما يكون في اتمامه عنوان عزها وشعار فخرها . وهو كلام صادق من كل الوجوه وفي جميع الحالات لان الشرف هو الشيء الوحيد الذي لا يسترد اذا ضاع وخليق بمن عثر به الحظ فضاع شرفه ان يرى مسطوراً على لوحة مستقبله ما رآه دانتي مكتوباً على باب الجحيم : ايها الداخل الى هنا ودّع الرجاء

ولا اظن ان اشد التعاليم قساوة يصح في شرعها ان تشجب مظهراً كهذا من مظاهر اليأس والقنوط او تقضي عليه قضاءها المبرم بل اني اضرب صفحاً عن حديث هذه الشؤون وكله شجون حتى اني لانحي على نفسي بالملائمة لاستيقافي خاطر القارىء ولو هنيهة لدى مثل هذا المشهد المؤلم .

البقية تأتي

التعليم والتربية في السجون

التعليم والتربية من اكبر عوامل النهوض في الامم — شيء عن المدنية الحديثة — جناية على الآداب — صبي في احضان والدة جاهلة ووالد جاهل — لص يسطو على المنازل ليلا — تستأصل شأفة الاشقياء بالتعليم والتهذيب — يتيسر تلافي ضرر المسجونين فيما بعد بتربيتهم وتعليمهم في السجون — سجون الاحداث — الفقر يدفع بصاحبه الى اتيان الذنوب — كلمة عامة ورأي عالم غربي

اجمع علماء التربية واتفقوا على ان الامة اذا كثر فيها وتعدد العلماء وازداد فيها عدد القارئين والقارئات يتسنى لها ان تجري في مجرى الارتقاء والتقدم بسرعة زائدة دون ان تعوقها عن سيرها احدى العوائق، ويوقفها في سبيل مجاراة الامم المتمدنة مانع من الموانع ، وحسبك دليلاً على ذلك ما بلغته الامم والطوائف الغربية من التمدن ، وما وصلت اليه من العظمة والابهة . وما منشأ هذا كله ومصدره الا التهذيب والتعليم الذي سرى في جسم تلك الامم